مجلة علم النفس — اكتوبر سنة ١٩٤٨

التنويم والتحليل

بقلم
كمال دسوقى
مدرس بمدرسة المنصورة الثانوية

ولئن كانت حقائق التنويم قد كشفت لأول مرة عن اللاشعور ، فان أصحاب التحليل النفسى هم الذين بينوا مداه وأهميته فى حياتنا اليومية : كما جعلوا دراسة الأحلام ذات قيمة ومتاع كفرع من علم النفس ، وربطوا طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور

ولز وهكسلى (١)

لعل قانون الأحوال الثلاث لأوجست كونت لم يصدق على شىء من النظريات العلمية الحديثة صدقه على تطور حقيقة التحليل النفسى أو التنويم ، فإنها هى الأخرى قد مرت بمراحل ثلاث ، كانت درجة الاهتمام فيها بالتنويم تبلغ غايتها ، ثم لا تنقطع ، بل يستمر بها ليصلها من الطور الأول إلى الذى يليه طائفة مخلصون من الأتباع يزاولونها ويتقدمون بها .

ففيما بين ١٧٨٠ ، ١٧٩٠ أزهرت المسمرية فى باريس ، فكان دور التنويم المغناطيسى والمغناطيسية الحيوانية : دور صراع ونقاش وخصومة ، وسحر وغموض وتأثير ، ثم عادت المسمرية فذوت وظلت نصف قرن يزاولها أتباع مخلصون قليلون فى السر والخفاء .

وفيما بين ١٨٤٠ ، ١٨٥٠ قامت على أنقاض المسمرية نظرية التنويم البريديه — نسبة إلى جيمس بريد الإنجليزى — فأصبحت الظاهرة السحرية الخفية حقيقة علمية واضحة ، يفسرها علم النفس كما فسرتها الفزيولوجيا ، فكان دوراً خصباً فى تاريخ هذه الظاهرة ، وضع بين يديها أدلتها القوية ، ومكن لها وحقق وجودها .

ولم يزد الطور الثالث على حقيقة الظاهرة أو تفسيرها بجديد ، بل إنه ظل يغفل قيمتها العلاجية منذ أن قل الاهتمام بها سنة ١٨٦٠ بوفاة بريد — ويقدم عليها

(١) H. G Wells, J. Huxley & G.P. Wells : The Science of life. 1938 Pp. 1307.

الأثير والكلوروفورم وغيرهما من المخدرات فى العمليات الطبية ، ولم يبدأ الدور الثالث إلا على يد شاركو ومدرستى نانسى وسالبتريير Salpêtrière — ثم بروبر وفرويد ومن تبعه أو خرج عليه — وقد أوجد هؤلاء مادة أخرى أو ميادين جديدة للتنويم ، استخدمه فيها كل على طريقته .

ولعله يتبين لك — بعد الفراغ من قراءة هذا المقال — أن الدور الثانى من أدوار حقيقة التنويم أولى بأن يكون الدور الوضعى الأخير ، فإذا انتهيت إلى هذا فقد انتهيت إليه من قبل — لأنه فى هذا الدور كان تحقق التنويم ، أى ظهوره فى المسرح العلمى كحقيقة — لا كشعوذة أو سحر — ولأنه فيه كان يزاول بإخلاص وتحمس — بينما أحاط فرويد وأتباعه هذه الظاهرة فى الدور الثالث بهيكل ضخم من النظريات والافتراضات ، ليس هنا موضع عرضها أو نقدها — فغرضنا فى هذا المقال — التنويم فى نشأته وتطوره إلى التحليل — كمنهج — أما تفسيرات هذا المنهج ، فهى ما سنخصه بالحديث فى مقالنا التالى عن اللاشعور .

ومع أن اختراع التنويم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان حدثاً فى علم النفس لا يعدله فى أهميته إلا اكتشاف الفلكيين للمعادلة الشخصية المعروفة personal equation ؛ فإن التنويم ظاهرة عقلية قديمة معروفة للإنسان منذ البدء كالظواهر الأخرى ، نجد أمثلة لها حينئذ فى مشى النائم sumnambulism وفى الغناء الصوفى وبعض حفلات البدائيين الدينية — كما وجد من العلماء الطبيعيين الصوفيين من قال بمغناطيسية الأجسام الإنسانية ، وقدرتها السحرية — كالنجوم — على التأثير فى أجسام أخرى ، بصدور لطيف يخترق المكان ، مثل باراسلسوس Paracelsus الصوفى العالم (١٤٩٣ — ١٥٤١) وفان هلمونت Von Helmont (١٥٧٧ — ١٦٨٣) الذى خلق نظرية المغناطيسية الحيوانية ، قائلا : إن الفيض المغناطيسى يشع من الأشخاص جميعاً ، ويمكن أن توجهه إراداتهم للتأثير على عقول الغير وأجسامهم ، فكان لأقواله هذه أثرها فى قيام كثير من العلماء فى أوروبا يعالجون المرضى بالتأثير — وبدون مماسة — كما كان يفعل جرتيريكس Greatrakes (١٦٢٩ — ١٦٨٣) فى إيرلنده ، وغيره فى غيرها .

ولم تعد هذه المحاولات كلها أن تكون عملية ودينية ، ترى فى التأثير المغناطيسى لوناً من القوى الطبيعية الخفية ، حتى جاء فريدرش أنطن مسمر Friedrich Anton Mesmer (١٧٣٤ — ١٨١٥) فأكسب هذه الظاهرة روحاً علمياً — كما خلع

عليها من اسمه — فسميت به . ومسمر طبيب فى فينا ، بدأ أول أمره بفكرة شبيهة بفكرة فان هلمونت التى تقول بتأثير النجوم على الكائنات الإنسانية — كما هو معروف فى علم التنجيم Astrology ظناً منه بوجود مبدأ يخترق الكائنات ويؤثر فيها كالمغناطيسية والكهرباء ، وقد أدى به هذا إلى أن يختبر أثر المغناطيس على الأشخاص . وبربت أجسامهم ، أو إمرار المغناطيس عليها ، اكتشف أنه يمكن استخلاص ما نسميه الآن « التنويم » . وقد نشر هذه الحقائق ورأيه فيها فى كتاب له ظهر سنة ١٧٦٦ باسم : تأثير الكواكب De planetarum influxu وفيه بيان لاستعمال المغناطيس فى علاج بعض الأمراض .

وبعد عشر سنوات لقى قساً سويسرياً : جاسنر Gassner كان يشفى بطريقة مشابهة وبدون المغناطيس ، وهنا اقتنع مسمر بعدم ضرورة المغناطيس فى منهجه فتخلى عن استعماله ، وترك مزاولة التأثير بالمغناطيس ليقول بنظرية المغناطيسية الحيوانية كقوة خفية ، تؤثر من بعد وبدون أن ترى مباشرة ، على غرار المغناطيسية الطبيعية ، وعلى نحو ما قال به من قبل فان هلمونت ، ولم يلبث أن كتب فى ذلك إلى الأكاديميات العلمية سنة ١٧٧٥ — وكثر خصومه فى فينا فانتقل إلى باريس ١٧٧٨

وهناك فى باريس أنشأ جهازه المعروف baquet وهو صندوق من خشب البلوط يحوى مواد كيماوية ، ومجهز بزوائد كثيرة من الصلب ، وكان مسمر بطبيعة الحال قد مغنطه بما يجعله قادرا على أن ينقل المغناطيسية إلى الأشخاص الجالسين حوله فى شبه حلقة ، وأيديهم منعقدة أو موثوقة بحبال ، أى بما يشبه عندنا اليوم الجلسات الروحية ، والحجرة التى كانت مسرحاً لهذه التجارب كانت معتمة الإضاءة ، وعلى جدرانها مرايا كبيرة . وتعزف فى فترات معينة فيها قطع من موسيقى خفيفة ، وعلى الجالسين فيها يطلع مسمر أحياناً يستعرض الجلسة فى هيئة الساحر . فيلمس هذا ، ويربت على كتف ذاك ، ويحدق فى وجه هذا الثالث . فيحدث التأثير والانفعالات الكثيرة . ويتم شفاء الكثيرين بهذا التنويم المغناطيسى الذى يلعب دوراً كبيراً فى نفوس المرضى .

ويتجه الرأى العام فى باريس إلى الاهتمام بهذا الأمر ، وتؤلف اللجان لفحص هذه الظاهرة ، والتقرير عن مدى قيمتها ، فتأتى النتيجة سلبية (١٧٨٤) من حيث إثبات وجود الظاهرة ، وذلك برغم النتائج الإيجابية التى لاتنكر ، أعنى أن ظاهرة المغناطيسية الحيوانية لا توجدعلى النحو الذى توجد به الطبيعية ، وليس لها

على الجسم الإنسانى أثر هـــذه على الجسم المعدنى ، ولم يختلف هذا التقرير كثيراً عن رأى مسمر نفسه حينئذ .

وقد قلنا إن مسمر قد تخلى عن استعمال المغناطيس لأنه لا يكشف بجلاء عن هذه الظاهرة ، بينما أبقى على اصطلاح « المغناطيسية الحيوانية » محاولا أن يشبه بينها وبين المغناطيسية الطبيعية كقوى خفية . ولم يلبث الباحثون أن أنكروا على هذه أيضا هذا الشبه ، بل أنكروا عليه أن تكون مغناطيسية بالمعنى المعروف ، ما دام الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تلاعب مسمر بأشخاصه . فإذا لم تكن هذه القوة الخفية التى يسلطها عليهم مغناطيسية . وهو ما سبق أن أنكروه ، فلا بد أنها سر يحتفظ به هو ، لأنه يستحيل أن يأتى معه بهذه النتائج دون أن يعرفه . وراحت الحكومة الفرنسية تعرض عليه عشرين ألفاً من الفرنكات ليكشف عن هذا السر ، فلم يقبل ، إذ ليس عنده السر الذى يستحق الإعلان به هذا الإغراء ، وهو كل ما يعلم أن نتائجه هذه تعزى إلى قوة مغناطيسية فى داخل نفسه ، أى ما يعلمه كل باحث غيره فى المغناطيسية الحيوانية ، وأدى به تصريحه هـــذا إلى حملة الأطباء ورجال العـــلم عليه ، وإثارة المناقشـــات حوله ، واتهامه بالدجل والسحر — فرحل عن باريس إلى سويسرا حيث مات سنة ١٨١٥ .

ولعله لاشك أن النكسة التى منيت بها المغناطيسية المسمرية منذ أخريات حياته كما رأينا — وكما ستمضى مرة أخرى فيما بعد — إنما ترجع إلى تعارضها مع العلم والمهن الطبية أول الأمر ، وإلى أن الشىء الذى جاء به مسمر كان جديداً فى بابه — غريباً على العلم والعلماء — كما عبر مسمر نفسه أحياناً — ولو أنه اكتفى — كما يقول المؤرخون بالبحث عن طبيعة المغناطيسية الحيوانية ، لما كان ثمة تعارض مع العلم ولكن اكتشافه قد بدا منذ البدء أنه يحمل فى طيه إمكانيات عملية كثيرة ، وقوى خفية نافعة ، اندفع مسمر فى مزاولتها دون أن يعنى بتحديد ماهى وما طبيعتها ، ومن هنا أقبل عليه العامة لولعهم بكل ما هو سحرى وفيه خفاء . أما العلماء والمفكرون فلم يحظ بتأييدهم ، وحين دأب مسمر بهذا على إظهار نتائج المغناطيسية وأثرها دون تتبع لمقدماتها ، افترض العلم حينئذ أنها تقوم على السحر والدجل — الذى يحارب العلم ما استطاع ، ولو قد كان لدى مسمر نفسه علم بحقيقة عمله لاستطاع فى شىء أن يواجه الحملة التى شنها عليه وعلى فنه العلم والعلماء ، ولو أنه قد أرجع سر الأمر إلى نوع من الإيحاء أو التأثير النفسى لكان مقبولا ، ولكن ذلك كله لم يعرفه العلم إلا بعد أكثر من قرن

ومن هنا جرف مسمر تيار العلم المحافظ على تقاليده ، وحكم عليه بالخطأ ، ولم يجئ الحكم الذى ينصفه ويرد عليه اعتباره إلا متأخراً .

ورأينا فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر رجالا يزاولون المغناطيسية المسمرية ، ويعملون عليها رغم معارضة العلم وكره العلماء ، ومن هؤلاء فى انجلترا جون إليوتسن John Eliotson (١٧٩١ — ١٨٦٨) أستاذ الطب العملى فى يونيفرستى كوليج بلندن وكبير أطباء مستشفياتها ، وكان طبيباً عصرياً ممتازاً يؤمن بالجديد وبالكشف العلمى منذ أن كان يحاضر من قبل فى مستشفى سان توماس ، فكان لشجاعة تفكيره وخياله الخصب ونزوعه للتجديد أثرها فى قبوله أفكار مسمر ، وهو الذى لم يغيره من قبل معارضة خصومه فى إنشاء مستشفى يلحق بيونيفرستى كوليج ، لإيمانه بأن أية مدرسة طب لا بد لها من مستشفى ، ولم تثنه سخريتهم به لاستعماله سماعة الصدر Stethoscope لأول مرة فى انجلترا حين قالوا « إنها شىء يلهو به إليوتس» كما استحدث كثيراً من المخدرات عارضتها أول الأمر المهن الطبية ، ثم أصبحت بعد ذلك مقررة ، وهنا نرى أن هذه الشخصية الجريئة المؤمنة بالتقدم والأخذ بأسبابه لاتتردد فى الأخذ بمغناطيسية مسمر ، التى ما إن وقف عليها حتى أخذ يزاولها فى المستشفى بنجاح كبير فى شفاء الأمراض العصبية ، وعارضه زملاؤه لبعده عن الاستناد إلى شىء علمى ، وطلب إليه العميد أن يقلع ، قائلا : « إن كرامة مدرسة الطب هى أهم بكثير من البحث العلمى والكشف الطبى ، وفى سنة ١٨٣٨ قرر مجلس الكلية تحريم مزاولة المسمرية أو المغناطيسية الحيوانية فى داخل المستشفى » ولم يذعن إليوتسن لهذا أو ذاك ، وانتهى بأن استقال من الكلية والمستشفى الذى كان قد أنشأه كما رأينا ، احتجاجاً على أن مجلس الكلية قد وافق على هذا القرار دون مناقشة أو الاستشهاد عليه بأية بيانات أو معلومات أو نتائج

ومنذ ذلك الحين بدأ يركز جهوده حول تعمق المسمرية والانتفاع بها ، ومنذ ذلك الحين أيضاً تركزت خصومة المهن الطبية حوله والقليلين غيره ممن احترفوا هذا الفن — وسنذكرهم فيما بعد — وبدأ إليوتس منذ ١٨٤٣ يحرر مجلة Zoist كصحيفة « لفيزيولوجيا المخ والمسمرية والعمل عليهما لصالح الإنسان» فكانت ملتقى الأفكار الحرة الجديدة فى البيولوجيا والفيزيولوجيا والاجتماع ، وخصوصاً المسمرية وتقدمها . وفى سنة ١٨٤٩ أنشئ فى لندن مستشفى للعلاج على طريقة مسمر ، ولم تلبث أن فتحت عيادات أخرى مشابهة فى مدن بريطانيا وأعلن الطبيب فى اكستر ذات

مرة ، أنه قد « مسمر » ألف مريض ومائتين ، وأنه قد قام بمائتى عملية لم يتألم بها المرضى ، وكل هذا النشاط كانت تتكفل بنشره الـ« Zoist » لمن يريدون معرفته مما تجهله الصحف الأخرى

وهكذا نرى إليوتسن يأخذ بيد المسمرية ويناصرها فى انجلترا أكثر مما استطاع صاحبها ، وذلك — كما أسلفنا — لجرأة هذا الطبيب وشخصيته الفذة المجدده التى تفرض نفسها على معاصريها ، وقد تحب أن تعلم أنه لم يفته فى خطابه الذى ألقاه عن هارفى سنة ١٨٤٦ أن يندد بمعارضة العلم للمكتشفات الطبية الكبرى ، ومنها اكتشاف هارفى لدورة الدم ، وأن يقحم على سامعيه خلاصة دراساته التجريبية للمسمرية.

إلا أنه لاشك أن إليوتسن قد عنى ، كما عنى مسمر من قبل ، بالقيمة العلاجية للمغناطيسية خصوصاً ، وكان اهتمامه بها يقل من حيث كونها عاملا مخدراً له إمكانياته الكثيرة ، وهذه النقطة الأخيرة — أكثر من القيمة العلاجية — هى التى كان يمكن أن تتأدى بالعالم إلى فهم أحسن وتقدير أكثر للمسمرية ، ولو أن إليوتسن — ومسمر من قبل — قد أوضح أحدهما القيمة التخديرية التى للمغناطيسية الحيوانية فى تخفيف ألم العمليات الجراحية التى كانت المهن الطبية أشد ما تكون شوقاً إليها حينئذ ، إذن لكان أحدهما أسبق من طبيب الأسنان الأمريكى ولز Wells وبعده زميله مرتون Morton الأمريكى أيضاً ، اللذين بينا لأول مرة أثر التخدير فى تخفيف آلام العمليات الجراحية ؛ حين لم يشعر أولهما بألم يذكر فى اقتلاع إحدى أسنانه فى حالة تخدير (١٨٤٤) وحين بدأ الثانى يزاول التخدير ببخار الأثير (١٨٤٦) فى بوستن Boston . وللذين لم تكد أنباء عملهما تصل إلى انجلترا ؛ حتى كان التخدير بالأثير موضع الاختبـــار ، ثم انتشر استعماله فى العمليات الجراحية ، وفى الســـنة التالية مباشرة استخدم الكلوروفورم ، فلو أن مسمر أو إليوتســـن استطاعا أن يقدما المغناطيسية للعالم على أنها عامل مخدر كالأثير أو الكلوروفورم أو أوكسيد النيتروز — مع ما للتنويم من مزايا غير ضارة كهذه — إذن لتقبلها ورحب بها ولكن المسمرية قد منيت فى ذلك الحين بصدمة أخرى ، هى ظهور علم الغيب أو المكاشفة Spiritualism وعلم الأرواح clairvoyance منذ أن حاول إليوتسن التوفيق بينها وبين المسمرية لأول ظهورها فى نيويورك سنة ١٨٤٨ ، ثم عاد فنبذ علم الأرواح وأقر فى شىء من الشك علم المكاشفة ، ولكن ما كان من شبه بين المسمرية وعلم الأرواح يبدو فى تشابه الجلسات الروحية ، وجلسات مسمر حول

جهازه المغناطيسى ؛ محنة جديدة على المسمرية ، تعرضت معها مرة أخرى لحملة العلم على الأرواح وادعاء الغيب .

وبتأثير كتابات إليوتسن ظهر فى الهند طبيب يأخذ بالمسمرية ويعالج بها ، هو جيمس ايزديل J. Esdail (١٨٠٨ — ١٨٥٩) قرأ له منذ ١٨٤٢ ، وحدث سنة ١٨٤٥ أن استعان بالمغناطيسية على شفاء مريض كان يعانى آلاماً مبرحة ، فاستطاع فى دهشة بالغة أن يخلص المريض من آلامه تماماً ، ومنذ ذلك الحين بدأ يستخدم التنويم كمخدر ، وكتب بذلك إلى الجمعية الطبية ، كما قدم تقريراً عن أكثر من مائة حالة عالجها بالطريقة المسمرية ، وانتدبت لجنة للبحث ، فجاء تقريرها إيجابياً مع شىء من الحذر . وأنشأت الحكومة البريطانية له مستشفى فى كلكتا . ولم تمض سنة حتى اقتنع الزائرون الرسميون للمستشفى بأثر التنويم المغناطيسى ، ولكن الحكومة البريطانية أغلقت المستشفى رغم ما تقدم به ثلثمائة مواطن من كلكتا بطلب استمراره ، وفى سنة ١٨٤٨ أنشأ الأهلون مستشفى خاصا لهذا الغرض ندبوا له إيزديل ، ولم تمض ستة شهور حتى ندبته الحكومة إلى مستشفى آخر ليعمل «بالمسمرية إلى جانب الوسائل الطبية » ولما غادر الهند سنة ١٨٥١ ظل يزاول المسمرية فى اسكتلندا مع اليوتسن حتى مات سنة ١٨٥٩ .

وبهذا نرى أن إيزديل كان فى حالة يحسده عليها إليوتسن : أيدته الحكومة معظم الأحيان فاستطاع أن يقوم بحوالى ثلثمائة عملية كبيرة ، وعمليات صغيرة لا حصر لها — كلها على الطريقة المسمرية . وبغير ألم ، فأقبل عليه الأهلون متجنبين غيره ، وأقدم هو بدوره على عمليات يخشى غيره القيام بها ، ومع هذا لم يسلم من حملة المجلات الطبية الهندية عليه ، وقولها إن نجاحه يرجع إلى إقبال الناس ومحاولتهم استرضاءه ليقوم بعلاجهم دون غيره ، كما اتهم إيزديل بأنه يقلل القيمة الأدبية للعمليات الطبية ، ، وتلك هى التهمة التى كانت توجهها دائماً جمعية الجراحين الملكية بلندن للتقريرات التى يقدمها إليها مزاولو المسمرية ، أمثال وارد Ward وسنعود لذكره ، ومارشال هول Marshall Hall وغيرهما ، قائلة : إنه إذا سلمنا بصحة هذا المنهج ، فإنه يعد غير خلقى immoral . لأن « الألم هبة حكيمة من الطبيعة ، وأن على المرضى أن يعانوا الألم فى عمليات الأطباء » .

ولم تكن المجلات الطبية فى الهند أو انجلترا لتنشر لإيزديل تقارير بحوثه ، فظلت دراساته هذه طى تقاريره إلى الحكومة الهندية ، حتى استطاع فى سنة ١٨٤٦ أن

ينشر كتاباً مستقلاعن المسمرية فى الهند وتطبيقها العملى فى الجراحة وفى الطب (ظهرت Mesmerism in India and its practical application in surgery and medicine طبعته الثانية فى السنة التالية) . وفى سنة ١٨٥٢ نشر رسالة أخرى بعنوان ، إدخال المسمرية كعامل تخدير وشفاء فى مستشفيات الهند Introduction of Mesmerism as an Anoesthetic and Curative Agent into the hospitals of India وما زال إيزديل والسير جيمس سمبسون Sir Simpson الذى كان أول من اكتشف خواص الكلوروفورم المخدرة ، واستخدمه فيها ، ما يزالان يجهران بتفضيل المسمرية على أنواع التخدير الجديدة — كالأثير والكلوروفورم التى تترك بعدها آثاراً ضارة ، وقد تؤدى إلى الموت إذا لم يضبط استعمالها — وحينما أراد الكونجرس الأمريكى للولايات المتحدة أن يهب منحة عشرة آلاف دولار لمكتشف قوة التخدير بالأثير ، قائلا : إنه أول مخدر فى الطب ، كتب إليه إيزديل يحتج ، — لا طمعاً فى الهبة — ولكن لأن المسمرية كمخدر هى أسبق من الأثير .

وإنما نشأ التنويم بمعناه الحقيقى على يد جيمس بريد James Braid (١٧٩٥ — ١٨٦٠) الذى اشتهر أكثر مما كان إليوتس وإيزديل ، لأنه لم يتعارض مثلهما يوماً مع المهن الطبية ، والذى لم يعرف عنه أنه مسمرى ، ولما كان قد أطلق على طريقة مسمر : النوم العصبى nervous sleep فقد أطلق على طريقه هو ، علم التنويم العصبى ، neurohypnology ، أو كما اختصرها فيما بعد neurypnology ثم أسقط مرة أخرى صدر الكلمة وأبقى على مادتها ، ومنها جاءت كلمات : التنويم ، وتنويمى ، وينوم ..الخ وبهذا الاعتبار كان بريد منوماً لا مسمرياً ، ولم تكن هذه أول الأمر شيئاً آخر غير المغناطيسية الحيوانية التى انتهى إليها مسمر بعد أن تخلى عن استعمال المغنطة ، وأبقى عليها لقوة تأثير ، ولكن الإسم الجديد الذى قدمها به بريد ، والابتعاد بها عن المسمرية — ولو اسما — قد مهد لقبولها وإساغتها .

وكان بريد يزاول الطب فى منشستر فلم يكن له فى الجراحة شأو كبير ، وأهم ما يعرف به هو عمله فى التنويم ، الذى خرج به عقب معارضته لافونتين Lafontaine (١٨٤٦) وهو يعرض فى منشستر الطريقة المسمرية ، فساعده اعتداله والظروف المحيطة به على أن يصبح فارس الميدان ، خصوصاً وأنه لم يتعارض كما قلنا مراراً ، مع المهن الطبية تعارض مسمر ، ولم يفرض عليها وعلى رجالها بحوثه وطرائقه كما فرض إليوتسن ، بل ما زال بعد نبذ المسمريين له ، يضيق الشقة بينه وبين المهن

الطبية ، ويحيط نظريته بسياج من التجريب والبحث العلمين ، ونجاحه فى هذا قد أحفظ المسمرين عليه بقدر ما قرب بينه وبين الطب ، لأنه ظهر بجلاء أن أصحاب المهن الطبية يعارضون المسمرية فى أشخاصها لا فى قيمتها ، خصوصاً وأن بريد — كما رأينا لم يأت بمذهبه إلا متأثراً بالمسمرية ، وإن شئت فقل ، هو قد جرد المسمرية ثم عرضها على الناس ، فلم يكن اليوتسن يحمل له إلا كل احتقار .

وتفصيل اكتشاف بريد للتنويم أنه بينما كان لافونتين يعرض فى منشستر بعض نتائج المسمرية سنة ١٨٤١ أى بعد استقالة إليوتسن بثلاث سنوات ، استرعى اهتمام الرأى العام ، وتناولت المنشستر جارديان مسألة الحديث ، حتى اتسعت جلسات العرض بعد المرة الأولى اتساعاً كبيراً ، وانضم إليه بعض رجال الطب ، وكان الشعور العام فى جانب لا فونتين ، رغم ما يحتمل منهجه من خداع يمكن أن يكون فى أنه يعمل خصوصاً على شخصين أحضرهما معه ، والمهم أن بريد قد لاحظ أنه لابد أن يكون وراء هذه الظاهرة شىء أكثر من مجرد الخداع ، وأيد له هذا الرأى أنه رأى إحدى الشخصين لاتقوى بعد العمل على فتح عينيها ، وذكر طبيب آخر كان معه فى هذه الجلسة أنه قد اختبر إحدى الشخصين بوخز دبوس تحت ظفر أصبعها دون أن تشعر بألم ، وشعر بريد بالحرج ، فهو قد أعلن نفسه خصماً للمسمرية ، وها هى ذى الشواهد واضحة على أنها ظاهرة حقيقية ، ولم يؤد به هذا إلى أن يرتد إلى حظيرة المسمرية ، بل راح — لمحافظته ونضج ذهنه — يتتبع باهتمام العرض الثانى ، ثم يعود إلى بيته فيقوم بعمل شاق وتجريب متواصل يقرب هذه الحقيقة من تفسير علمى فيزيولوجى .

ذلك أن أساس المسمرية إنما كان يقوم على أن علة الظاهرة كلها هى فى شخص مسمر أو من يقوم مقامه — كما رأينا — فهو المؤثر بالمغناطيسية الحيوانية ، ولم يقنع هذا الرأى عقل بريد ، بل رأى على ضوء ما ذكرنا من ملاحظاته ، أن لابد من علة فيزيولوجية كافية فى ذات الشخص أيضاً ، وشد ما كانت دهشته عندما رأى أنه يستطيع أن يجرى التنويم على أصدقائه وأفراد أسرته بجعلهم يحدقون فى شىء لامع مضىء فوق مستوى النظر ، فانتهى إلى أن الظاهرة المسمرية إنما هى حالات نوم « يحدث بموازاة عضلات الجفون الرافعة عن طريق عملها المستمر خلال التحديق الثابت المتراخى » . وراح بريد فى حماسته بنظريته الجديدة يجرب عليها ، فأخذ مكان لا فونتين الذى لم تمض ستة أسابيع على مغادرته إياه ، ونوم

بعض الأشخاص على طريقته ، وعرض عليهم نظريته التى تفسر الظواهر الشبيهة بظواهر لا فونتين — لا على أساس مسمرى — بل بطريقة فيزيولوجية علمية تسترعى الاهتمام ، قال المؤرخون : وكان التواضع الذى حملته هذه النظرية بالاتجاه نحو الشخص بدلا من تفخيم الطبيب بجعله قوة تأثير مغناطيسية ساحرة شفيعاً لقبولها : السبب عينه الذى من أجله سقط إليوتسن . ولكن لاشك عندنا فى أن إذاعة هذه النظرية كنقيض للمسمرية لا يبرئها من كثير من الإدعاء والافتراء ، وإن تكن فسرت الظاهرة تفسيراً أصح .

وعد بريد إذن مخترع التنويم . أو هكذا عد هو نفسه ، كما يظهر حينئذ من تجاربه وكتاباته ، ليس شك فى أنه قد لقى معارضة من الأطباء والمسمريين وبعض العامة ، ولكنها أخف بكثير مما منى به سابقوه ، وفى سنة ١٨٤٣ نشر كتابه الرئيسى ، علم التنويم العصبى Neurypnlogoy أو معقولية النوم العصبى منظوراً إليه فى علاقته بالمغناطيسية الحيوانية . الذى أشاع منذ ذلك الحين استعمال كلمة التنويم وما اشتق منها ، وترجمه إلى الألمانية سنة ١٨٨٢ برايرW. Preyer : Der Hypnotismus وإلى الفرنسية سيمون سنة ١٨٨٣ J. Simon; Neurypnologie واستمر نشاطه وكتاباته حتى عد له المؤرخون تسعة وأربعين عنوان مقالة وكتاب ، وكتب عنه سبعة وعشرون كاتباً من معاصريه ، كما ذهب فليبس J.P. Philips (وهو يرمز لنفسه باسم قلمه : nom de plume ديران دى جروDurand de Gros فى كتابه مقال نظرى وعملى فى البريديةCours théorétique et pratique de Braidisme أو التنويم — العصبى من حيث علاقاته بعلم النفس والفيزيولوجيا والباثولوجيا . (١٨٦٠) ذهب إلى تسمية التنويم بالبريدية Braidisme عن « بريد » أسوة بالمسمرية عن « مسمر » فى نفس السنة التى توفى فيها مطمئناً على أن له فى فرنسا أتباعاً يعملون له خصوصاً .

وفكرة « بريد » عن التنويم — كما رأينا — كانت تقوم أول الأمر على توكيد أهمية الجانب الحسى من التأثير ، بتركيز نظر الشخص فى شىء براق ، ولعله قد أتى إلى ذهنه غير طويل أن ثبات النظر إلى الشىء معناه تركيز الانتباه . مما يوشك أن يكون أمراً سيكولوجياً أكثر منه فيزيولوجياً — ثم هو يوغل أكثر من هذا فى الابتعاد عن فيزيولوجيته إلى السيكولوجية المحضة ، بإدراك ما لعامل الإيحاء snggestion من أهمية بالغة فى إحداث ظاهرة التنويم . كما تبين له أيضاً من

حقائق علم النفس ظاهرة انقسام الشعور ، حين رأى أن الذكريات تبقى لدى المريض من حالة التنويم إلى حالة أخرى . بينما تتعذر عليه فى اليقظة ، ولو قد استمر فى الكشف عن هذه الحقيقة حينئذ ؛ لسبق بها فرويد فى الكبت واللاشعور ، ولكنه لم يكن جريئاً جرأة فرويد . أو صاحب نظريات ونزوع إلى الشهرة مثله ، لقد كان يعنيه أول ما يعنيه أن يستمتع بحقيقة الظاهرة .

« وبريد » بهذا إذن قد انتقل بالتنويم من دوره الأول الغامض المليء بالخصومة والجدل الشخصى . إلى دور علمى يجعل منه حقيقة واقعة . فهو ممثل الدور الثانى للتنويم غير منازع — بل إن التنويم بمعناه الحقيقى يبدأ به . ولم يستطع أحد بعده من العلماء أن يوضح للعالم من حقيقته أكثر مما فعل هو ، كما أنه قد مهد بنتائجه هذه للدور الثالث من أطوار التنويم ، بنقله خطوات كثيرة من مجرد النوم العصبى إلى « الإيحاء النفسى »

وبعد «بريد» قل الاهتمام بالتنويم لعاملين : أولا : الجهل حينئذ بقيمة التنويم كعامل مخدر فى العلاج والطب كالأثير والكلوروفورم . وثانياً : أن دى جرو Durand de Gros قد رأى من الخير — كما أسلفنا — أن يرمز إلى التنويم بالبريدية Braidism ما دام قد انحل من النوم العصبى الفيزيولوجى إلى مجرد الإيحاء النفسى . ففى انجلترا نفسها عفى النسيان على عمل « بريد » فلم يعد يسمع عنه شىء ، ولكن ليبو Liébeault قد أقام فى نانسى Nancy منذ ١٨٦٤ وأنشأ مدرستها الشهيرة التى استعمل فيها التنويم لأغراض علاجية . وشاركو Charcot فى فرنسا ، قد نبه كما نبه ريشيه Richet من قبل إلى أهمية ظاهرة التنويم . وعلى آرائه هذه أقام بقيادته مدرسة سالبتريير Salpêtrière . وفى هذا الوقت أيضاً قام بمثل هذا النشاط فى ألمانيا هايدنهين Heidenhain كما ترجم برايير Preyer كتاب « بريد » المذكور (١٨٨١ — ١٨٨٢) . وهكذا بعث من جديد عمل « بريد » . وبدأ الدور الثالث على أساس الإيمان بالتنويم كحقيقة ، والبحث فى طبيعته فحسب . واختلفت المدارس فى تفسير هذه الطبيعة ، فمنها ما جارت « بريد » فى تفسيره تقريباً . (مدرسة نانسى) ومنها ما تجاوزت الاعتدال بقولها إن هذه الظاهرة ذات طبيعة هستيرية . وإنها أعراض شذوذ وانحراف (مدرسة سالبتريير) وكان السبق للأولى من غير شك . فلم يعد حينئذ أدنى ريب فى أن التنويم حقيقة جديرة بالبحث العلمى ، ولكن رأى المدرسة الأخرى سوف نرى أثره فيما بعد .

ومنذ ذلك الحين ما برح التنويم الإيحائى — أو الإيحاء بالتنويم — أهم وسائل الهجوم على اللاشعور ، والنفوذ إلى عقد الكبت والمشاكل النفسية ، وإن كان ثمة طرق أخرى فى مقابل هذه ، منها علاج المريض بالراحة ، أو إرساله فى رحلة بحرية أو نحوه ، ولكن وسائل العلاج هذه لم تكن تغنى شيئاً فيما إذا كان أصل الداء مزمناً أو متأصلا فى المريض ، بل كثيراً ما كانت هذه العزلة الخلوية فى الاستراحة أو فى البحر سبباً فى إثارة الصراع الكامن فى نفس المريض بين نوازعه ورغباته ، التى كان يصرفه عنها بعض الشىء من قبل ظروف خارجية ، فتزيد حالته سوءاً ، خصوصاً أن هذه الوسيلة أو تلك — حتى لو أفادت المريض — لم تكن تغير من علة الداء شيئاً ، وكل ما تفعله هو أن تخفف من أعراضه ونتائجه أو آثاره . فلا يلبث الداء بعد هذا العلاج المؤقت أو المسكن أن ينفجر فى أعراض وآثار أخرى جديدة .

ومثل هذا الاعتراض قد قيل يوماً ما فى الإيحاء التنويمى ذاته ، وفى الإيحاء الواعى أو إيحاء اليقظة Waking suggestion والإقناع persuation : أنها تعالج الآثار ولا تنفذ إلى العلل ، وأنها بالتالى علاج مؤقت ، وإن كانت حالات كثيرة من الصدمات النفسية أثناء الحرب قد عولجت بنجاح عن طريق التنويم . فإذا ما تبين أن الشخص مصاب بمرض عصبى نتيجة صدمة رعب أو فزع أو نفور قوية ، يحاول المريض أن يكبت ذكرياتها المخجلة ، كان التنويم يفلح فى استعادة الذاكرة المفقودة . ومع أن الاسترجاع كان عسيراً ، ويكتنفه حالات مقاومة عنيفة من جانب المريض ؛ فإن آثاره فى إزالة أعراض المرض كانت محققة لو تحقق هو . وقد سميت هذه الطريقة فى إزالة أعراض المرض بتذكر الصدمة أو الانفعال : التصريف abreaction . وهو وإن كان منهجاً سليماً وكافياً ؛ إلا أنه محدود على كل حال ، ولا يشفى إلا واقعة جزئية فقط من الانهيار العقلى ، ولم يكن يستطيع أن يعالج مجموع الخبرة التى نشأت فى نفس المريض من صراع نفسى هو نتيجة لهذه الصدمة الانفعالية ، وخصوصاً حين تزمن هذه الخبرة وتتأصل فى نفس المريض ، فلم يكن يسلم بعد علاجه بهذه الطريقة من تعرضه لمباغتة الصدمات القوية الناشئه عن هذا الصراع النفسى الذى ما زال قائماً ، خصوصاً إذا علمنا أن هذه الخبرات المرضية فى وقت السلم أخطر منها فى وقت الحرب ؛ لأنها لا تنشأ عن صدمة واحدة يتلقاها المريض — كما فى الحرب — بل

عن صدمات متعددة ، ولذا يكون الصراع النفسى فيها حاداً ، وتنشـأ الخبرة هنا وتتعقد تدريجياً وفى بطء ، من خبرات كثيرة .

من أجل هذا لم يكن منهج التصريف abreaction * الذى اكتشفه يوسف بروير J. Breuer (١٨٤٢ — ١٩٢٥) حوالى ١٨٨٠ يكفى وحده فى علاج الخبرات العصابية المعقدة . حتى كمله منهج التحليل النفسى الذى نهض به وحده فرويد فيما بعد ، وكان فرويد قد استفاد بضحبة أستاذه شاركو فى باريس (١٨٨٥ — ١٨٨٦) وباشتغاله مع بروير فى التقدم بمنهج التصريف ، مقروناً بما كان يسميه بروير التعبير talking out ، الذى كان سبب اكتشافه فى الأصل سيدة مريضة بالهستيريا كان يعالجها بروير ، فاقترحت عليه أن يتيح لها أثناء التنويم أن تنفس عن صدماتها الانفعالية . فلما أتاح لها ذلك تحسنت صحتها بما يقرب من الحياة العادية . وواصل بروير التنويم أو التصريف بهذا العلاج التعبيرى talking out treatment ونشر نتيجة بحثه فيه مع فرويد بين سنتى ١٨٩٣ — ١٨٩٥ فى نفس الوقت الذى نشر فيه بيير جانيه نتائج دراسته لعلاج الهستريا بالتنويم وإن كانت دراستها تتشبث أكثر منه بالأثر العلاجى للتعبير الكافى . أو ما سمياه التطهير العقلى mental catharsis الذى من شأنه أن يستبعد مصادر الاضطراب من الجسم .

سرعان ما ضاق بروير — لسوء حظه وحسن حظ العلم — بتطبيق هذا المنهج على حالات المرض العصبى فتخلى عن هذه الدراسة لمجرد أن إحدى مرضاه من النساء قد أعلنت أنها وقعت فى حبه بحيث لا تستطيع فراقه ، فصد صاحبنا هذا التنفيس غير المنتظر ، وهذا الخطر الداهم صدوداً تاماً . رأى معه أن يفر من الميدان تاركاً فيه فرويد وحده ، وبينما تشاءم هو وتطير من هذا الحب المخيف الذى رأى معه أنه لا يستطيع أن يبقى على موقفه كطبيب ومحلل ؛ انتهى فرويد — بعد شىء من الاضطراب ذاته — ثم بتدبر سيكولوجية الأمر ؛ إلى أن شخصه كطبيب ليس هو المقصود بالحب ، وأنه لا يعدو أن يكون بديلا أو نائباً لموضوع الحب الحقيقى عند هؤلاء المرضى ، ومن هنا نشأت فكرته فى الانتقال أو التحول transference التى دأب على دراستها وإكمالها والانتفاع بها فى العلاج عدة سنوات حتى اكتملت وأصبحت جزءاً بارزاً من نظريته .

* انظر فى هذا العدد المقال الانجليزى للدكتور وزدم عن العلاج بالتصريف .

ولم تلبث دراسة فرويد هذه الجديدة — حين انفرد بنفسه — أن قللت إيمانه بمنهج التصريف بالتنويم من حيث نتائجه ، فاستبعده وركز اهتمامه كله فى التعبير — أو ما أسماه هو : التحليل — فانه وإن كان أكثر بطئاً ، ويحتاج إلى صبر ومجهود ، كان يأتى بنتائج أحسن . واتجه بالتحليل أول الأمر إلى ذاكرة المريض ، فكان يهيئ له أن يفترض لنفسه موقف ارتخاء واستسلام . دون الاستعانة بتنويم أو إيحاء ، ثم يطلب إليه أن يبسط فى حرية وصراحة ما يعانى من ألم . وما عسى أن يكون لذلك من سبب . وأن يذكر — وهو على حاله هذه من الارتخاء — كل ما يرد على ذهنه من أفكار . تاركاً إياها تتداعى وتنساق أياً كان نوعها وقيمتها ، دون خشية للرقيب أو الحرج أو غيرهما .

إلا أن فرويد كان لا بد أن ينبه المريض إلى عدم الانسياق فى أحاديث عامة ، وإلى ضرورة تناول أموره ومتاعبه الخاصة الشخصية . بل كان عليه أن يضع لذلك مقياساً يقلل من طول هذه الطريقة وصعوبتها . كما كان المريض من جانبه لابد أن يتوقف عند نقط بعينها . يجد من نفسه مقاومة عنيفة لذكرها والإفضاء بها ، وفرويد . وإن كان من جانبه يشجع المريض على الاستمرار ؛ وإن كان قد اهتدى لأول مرة من هذه الظاهرة إلى وجود كبت لا شعورى للرغبات والدوافع النفسية ، هو الذى يسبب المقاومة من جانب المريض فإن تسميته لهذا المنهج بالتداعى الحر « free association » لم تكن لتصدق كل الصدق فالتداعى — كما رأينا — كان يجد معوقات من جانب الفرد لم يكن بد من تشجيعه على عدم الاكتراث لها والاستمرار فى حديثه أو استئنافه من جديد . كما أن هذا التداعى لم يكن حراً تماماً ؛ بل كان لا بد لصالح العلاج ، أن يلصق بشخصية المريض وآلامه . وعلى أى حال ، فإن التداعى الحر على صعوبته ومقاومة المريض له ، لأنه رغم استرخائه واع منتبه ، وخصوصاً خاصة المرضى وأغنياؤهم كما تبين لفرويد ، نقول هذا التداعى الحر ، إذا أفلح بعد هذا العناء ، لم يكن له مجرد أثر التصريف فحسب . بل كان يظهر المريض على أصل الداء وعلته . ويكشف له عن حقيقة شخصيته وما يصطرع فيها من عوامل . وبعد هذا التشخيص أو الكشف عن شخصية المريض ، ومعرفة نفسه على حقيقتها ، لا يبقى على الطبيب أو المريض إلا أن يعالجها أوتوماتيكياً بإعادة تنظيمها .

ولم يلبث فرويد أن اهتدى كذلك إلى تحليل أحلام المريض . التى قام على

مزاولتها وتعديلها والدراسة عليها الربع قرن التالى ، قبل أن يظهر فيها كتابه تحليل الأحلام سنة ١٩٠٠ . فقد حسب فرويد أنه يستطيع فيها — بما لا يستطيعه مع منهج التداعى الحر — أن يقوم بالهجوم المباشر على اللاشعور ، وأن ينتزعه من سيطرة الرقيب . فلا يشعر المريض وهو يقص عليه الحلم الذى رآه ، ويتحدث عن كل جزئية فيه — ويربطه بما لديه من ذكريات وانفعالات سابقة ؛ أن فرويد ينفذ بهذه الطريقة إلى لاشعوره الخفى ، وأنها مؤامرة هجومية لا شعورية علميه .

ولفرويد هنا أهمية ظاهرة فى الانتباه إلى قيمة الحلم فى التحليل النفسى ، وكان علم النفس فيما قبله يقلل من شأن الأحلام ويعدها نوعاً من التنبؤ والتكهن لايمت إلى العلم بسبب . أما هو — وأتباعه من بعده — فقد رأوا فى الحلم عرضاً من أعراض العصاب . كما رأوا فيه حالة بين النوم واليقظة لسيل من التداعى الفكرى لا رقابة عليه ولا نقد ، وأنه بالتالى مصرف للرغبات والعقد المكبوتة ، وإن يكن تصريفاً خفياً رمزياً غير مباشر يعسر إدراكه على المحلل المتمرن أحياناً . وقد أضاف فرويد إلى عبقريته فى تحليل الأحلام كأعراض للأمراض العصبية تحليل الزلات وهفوات اللسان وحضور البديهة أو النكتة . ظناً منه أنه بتحليلها يمكن الاستفادة فى تعرف الرغبات المكبوتة فى الحياة السوية قبل الحياة المرضية مما عبر عنه فى كتابيه الهامين : التحليل النفسى للحياة اليومية Psychopathology of every day life (طبعته الأولى الألمانية سنة ١٩٠٠) وكتابه الصغير : حضور البديهة وعلاقته باللاشعور Wit in its relation to the Unconscious (١٩٠٥) .

ولن يسعنا هنا أن نستمر مع فرويد فى تقدمه بالتحليل النفسى مستخدماً التداعى وتحليل الأحلام والسقطات والبديهة جميعاً ؛ حتى نلم بمكونات مذهبه الأخرى التى أدخلها ، فى حديثنا عن اللاشعور فى الفصل التالى . ويكفى حتى هنا أن نتبين أثر فرويد فى التقدم بمنهج التحليل النفسى حتى نهايته ، مستخدماً التنويم أولا مع شاركو ، ثم التنويم مقروناً بالتعبير أو التصريف abreaction مع بروير — ثم وحده ، بإسقاط التنويم* . واستخدام التداعى مع الاسترخاء ، ثم تقوية هذا المنهج أخيراً بتحليل الأحلام والفكاهة وزلات اللسان ، وكل ما كان يظن به التفاهة فى الحياة العادية ، مما أقام له فرويد — لأول مرة — أهمية ظاهرة .

ويكفى لكى تعلم أن المنهج أهم جزء فى مذهب فرويد ؛ أن ترى أن أتباعه

* أنظر مقال الدكتور صبرى جرجس فى التحليل التنويمى فى عدد يونيو ١٩٤٧ من هذه المجلة .

الذين انشقوا عليه لم يختلفوا معه فى المنهج ، منهج التحليل النفسى بالوسائل التى ذكرنا ، بل هم قد أخذوه عنه كما هو ، واختلفوا معه فحسب فى تفسير نتائجه : فبدلا من أن يفسر هو كل ما يقول به المريض على أساس رغبات جنسية مكبوتة كان يرجع بها التحليل غالباً إلى طفولة الفرد ؛ فسرها يونج وأدلر كل على طريقته ، مما نرجئ الخوض فيه إلى الحديث التالى ، مادام لا يتعلق بالمنهج ذاته ، بقدر ما يتعلق بتفسير نتائجه .

وإنما يهمنا هنا أن نعلم ما كان بين فرويد وأتباعه من خلاف حول تفسير الحلم ، لأن هذا من صميم المنهج الفرويدى ، ومن المسائل التى اختلفوا فيها أشد ما اختلفوا وكان اختلافهم فيها نتيجة لمذهب كل منهم الذى أدى به إليه تفسيره الخاص لنتائج تحليل الأحلام ، وأعراض الأمراض العصبية التى ذكرنا ، فكان طبيعياً ما دام فرويد قد فسرها بالكبت الجنسى منذ الطفولة ، أن يرى فى الحلم استرجاعاً أو إشارة إلى كبت جنسى سابق ، وعلى العكس منه تماماً كان أدلر الذى رأى فيه محاولة فى النوم لحل مشاكل اليقظة ، أى أن الأحلام تنزع إلى المستقبل ، وتكمل نزوعنا فى اليقظة للتغلب على صعوبات حياتنا وميلنا إلى السيطرة والعلو ، وهو فى هذا يتفق مع مذهبه فى النقص والتعالى وتقرير الذات ، والبحث عن أسلوب الحياة الذى يصطنعه الفرد ، وأما يونج فقد نحا بتفسير الأحلام نحواً أخلاقياً يبعد بها عن الجنس وعن إرادة القوة كما عند فرويد وأدلر ، وقال إنها تبين اتجاه اللاشعور فى المريض نحو مشكلته الراهنة ، وبالتحليل يصبح المريض شاعراً بهجومه الأول على المشكلة ، فيتمكن من إكمال اللاشعور بالشعور ، وبالتالى من فهم حالته القائمة بإثارة قوى الشعور إلى مواجهة الموقف الحاضر ، فنحن هنا فى تفسير الأحلام بإزاء نظريات ثلاث ترجع كل منها مدلول الحلم إلى واحد من آنات الزمان الثلاثة : الماضى والمستقبل والحاضر .

* * *

وبعد هذا العرض التاريخى الشامل لتطور التنويم والتحليل ، ننتقل إلى نظرة موضوعية عاجلة لدراسة هذه الظاهرة الهامة .

فالتنويم حالة وسطى بين النوم واليقظة ، تمت بصلة كبيرة إلى ظاهرة الكف Inhibition فى المراكز اللحائية ، هى وسط بين الكف الموضعى التام للنشاط العادى وبين النوم ، تكون فيه مراكز «الكنترول» والضبط فى اللحاء نائمة ، بينما تبقى

مراكز الانعكاس السفلى على وضع الجسم واتزانه بكل نشاطها ، فيجمد الكلب مثلا بما تستطيع عضلاته ، ويتصلب فى موضعه ، واقفاً متحفزاً منتبهاً ، بدون أدنى حركة ، دقائق أو ساعات أحياناً ، لا تعتريه أية غفلة تدل على النوم ، كما لاتبدو منه بادرة تنبئ عن سيطرة إيجابية . فلو حرك المجرب أحد أطرافه عن موضعها لبقيت حيث وضعها أخيراً ، بل أحياناً ما يكون الكف موضعياً أكثر يؤثر فى جزء من اللحاء فحسب ، بينما تظل للكلب السيطرة على غدده ، بحيث لو دق مترونوم أو نحوه من المنبهات التى كانت تستعمل لإثبات المنعكس الشرطى لسال لعاب الكلب دون أدنى حركة تغير من وضعه

وهذه التجربة على الكلب تنطبق على كثير غيره من الفقريات وحتى اللافقريات فالسرطانات مثلا ، لو أمسكت بها ، ومسحت على ظهرها من الذيل إلى الرأس بشدة ، تصل إلى حالة غيبوبة وتصلب cataleptic state كالتى ترى فى الإنسان والكلب ، وانعدمت حركتها ، وتصلبت عضلاتها بما يشبه صلابة الشمع ، فلا تتأثر بشىء حتى تزول هذه الحالة . والضفادع كذلك بربتها أو بوضعها ساكنة بين اليدين مسطوحتين مدة ، ثم قلبها على ظهرها فجأة ؛ تجمد عن الحركة ، وقل مثل ذلك فى الخنزير والماعز والدجاج وعقرب البحر ...بل لقد روت التوراة وروى غيرها من الكتب المقدسة كيف يستطيع السحرة ، إذا أمسكوا بالحيات من خلف رؤوسها ، وضغطهم على مؤخر الرأس ، أن تصبح — فى أخطر حالاتها — جامدة كالشمع (الخروج) — كما فى قصة فرعون مع موسى وهارون .

هذه التجارب تلقى ضوءاً على حقيقة التنويم العلمية المحيرة فى علم النفس ، فهى توصف أولا بأنها حالة إغماء أو غيبوبة ، أى حالة جمود تضيع فيها السيطرة الاختيارية ، بينما تبقى قوتا التوازن ووضع الجسم فاعلتين ، ويتوقف ذلك — كما قلنا — على الجزء من اللحاء الذى به الكف ، والجزء الذى مازال واعياً — أى على التنويم الجزئى أو الموضعى فى المخ ، بحيث لايستطيع الحيوان التحكم فى أطرافه ، ويظل فى أى موضع أريد به ، مع إدراك كامل فى كل لحظة بعجزه التام . وهذه التجارب لتنويم الحيوان ، وإن لم تكن ذات فائدة له ؛ فإنها تدل على أن التنويم نتيجة عارضة للطريقة التى يعمل بها الجهاز العصبى ، فإنه إذا وقع منبه خارجى غريب على اللحاء سوف يكف مؤقتا بعض وجوه نشاطه الأخرى ، وبعبارة أخرى فإن الكائن يركز انتباهه فى الحادث الجديد ، والمنبه المألوف الذى لا معنى له

يحدث كفاً أيضاً ، وهذه الأنواع كلها من الكف التى تحدث عادة لغرض خاص ، يمكن تحت ظروف مصطنعة أن يكون مبالغاً فيها بحيث تؤدى إلى التجمد التام فى الكائن العضوى ، إلى غير ذلك من أعاجيب المغناطيسية والتيارات الكهربائية التى تنتج بخفة من عمل الغدد والعضلات فى الحيوان ، مما هو أساس لعمليات الجهاز العصبى الخفية ، على نحو ما بينت دراسات بافلوف وتجاربه على ظاهرة التنويم فى الحيوان ، حين أنشأ نظريته الهامة فى الإيحاء suggestion وحاول أن يجد ظاهرة شبيهة لها فى الحيوان أثناء التنويم ، على أساس دراسته للتنبيه excitation والكف inhibition .

أما التنويم فى الإنسان فإنه يتميز أولا بأنه يرمى إلى غرض نفعى أو علاجى خاص ، وثانياً بأنه أكثر طرافة ولذة ، فالشخص يطلب إليه أن يستلقى على ظهره فى كرسى ، وعيناه مثبتتان فى شىء براق موضوع قريباً منه . ثم يخاطبه المنوم أو الطبيب operation فى هدوء وحزم ، موحياً إليه بأسباب النوم العديدة : النعاس drowsiness وثقل الحاجبين والأطراف والدفء ... الخ — وفى نفس الوقت ربما ربت المنوم على أطرافه — وقام بعدة مرات passes أو حركات وإشارات أمام وجهه ، على فرض أن هذه تثير تياراً من المغناطيسية الحيوانية بين المنوم والشخص ، وما دام العلم يرى أن هذا الفيض الخفى المغناطيسى لا وجود له — كما رأينا فى عرضنا التاريخى — فلم يبق إلا أن هذه الحركات باليد وهذا الربت والخطاب الهادئ تفعل بقوة حدوثها الإيقاعى rythmic monotony .

وبعد حين يشعر المريض بالثقل يدب فى أطرافه ، فهو لا يريد أن يحركها ولا يستطيع أن يحركها حتى ولو طلب إليه المنوم ، وتتصلب الأطراف حتى تنتهى بتعمق التنويم إلى حالة من المرونة plasticity تظل معها فى أى وضع توضع فيه ، بأى شكل وبأى مدة من الزمن . وهنا — فإذا أوقظ الشخص استطاع أن يعطى وصفاً كاملا لخبراته — أما إذا استمر التنويم ؛ فإنه ينتهى إلى حالة لا يتذكر فيها شيئاً — كما لو كان فى نوم لا أحلام فيه ، مع فارق هام : وهو أنه ما يزال على صلة بالمنوم en rapport منصرفاً له من دون العالم كله — فلا الأصوات العالية ولا صخب النظارة وأوامرهم تؤثر فيه بقدر ما يستجيب للهمسة الإيحائية من جانب المنوم .

وأحياناً ما يزاول التنويم لأجل التسلية أو التفكه ، وحينئذ يطلب المنوم إلى

الشخص أن يقوم بأعمال مضحكة ، كأن يغسل الأرض بماء موهوم فى دلو فارغ . أو أن يأكل إحدى « البطاطس » النيئة ، تقدم إليه على أنها تفاحة ، أو يوحى إليه أنه حمار أو خروف — أو نحوهما — ثم يطلب إليه تقليد أصواتها أو محاكاة سلوكها . تبعاً لهذا الإيحاء .

وإنما يتبين سلطان المنوم على الشخص حقاً ، عندما تجرى تجارب تنويم علمية فالمنوم يوحى للشخص مثلا أن إبهامه لا يحس بالألم ، وأن لسابته حساسية زائدة ، وحينئذ يدع إبهامه يجرح بتثبيت إبرة فيه دون أى دليل منه على التأثر ، بينما يبعد سبابته فى تأفف لأقل خدش يصيبه . ومن الإيحاءات الموفقة كذلك عمى العين أو كليهما ، وشلل الأطراف أو أحدهما . وقد توحى إلى شخص بغياب أحد النظارة وتطلب إليه الجلوس مكانه ، فلا يتردد فى أن يجلس على رجليه ؛ وأعجب من هذا أنه يمكن بالإيحاء لبعض الأشخاص إحداث قروح وتورم ، ورفع الحرارة أو خفضها ، أى التأثير على بعض النشاط الجسمى الذى يظن به أن لا سلطة لنا عليه ولا إرادة .

وأعجب من ذلك أيضاً ما يسمى إيحاء ما بعد التنويم posthypnotic suggestion ومؤداها أن يوحى إلى الشخص — وهو تحت تأثير التنويم — أن يقوم بعمل معين بعد أن ينتهى من حالة التنويم من غير حاجة إلى معاودة تذكيره به ، وقد يكون الفعل المطلوب إليه القيام به قبيحاً كأن يضع كرسى القدم footstool وسط المنضدة عند إشارة بعينها أو بعد انقضاء وقت معين ، فهذا الفعل ينفذ فى أغلب الحالات ، ويكون الشخص مضطرباً بعض الوقت قبل أن يفعل ، لما يجرى من صراع فى داخله بين نفسه الواعية التى تدرك قبح وضع هذا الشىء على المنضدة ؛ وبين عقله الباطن الذى ما زال خاضعاً لأمر المنوم الخفى ، إلا أنه — على أية حال — غالباً ما يفعل ما أمر به ، وإذا كان عليه أن يقوم بالفعل بعد انقضاء دقائق أو ساعات أو أيام أو أسابيع معينة ؛ فإنه ينفذ هذه التعليمات فى الزمن المحدد بدقة ، ولا عجب فى هذا ؛ فإنه قد يكون لهذه الأوامر تأثيرها بعد سنة أو سنوات .

إلا أنه يوجد — مع هذا — شىء من التعقل ، يبدو فيما يقوم به الشخص أحياناً من تبرير الفعل الذى يجبر على القيام به ، وإرجاعه إلى علة أو أخرى ، فلو طلب إليه فتح النافذة يقول : « إن الجو حار ، أليس كذلك ؟ » وقد يكون الجو منعشاً فى حقيقته ، ولكنه هكذا يبرر الأمر الذى يخضع له ، ويطلب إليه وضع زهرية

فوق رف كتب فيقول : إنها تبدو هناك أجمل حقاً وهذا ما يسمى عادة التسويغ أو التبرير rationalization أى تلمس العلية فى تحقيق فعل ليس الدافع عليه عقلياً بالضرورة ويشعر الشخص إزاءه بخجل شعورى أو دون الشعورى ، وهو إذ يفعل ذلك قد لا يعلم ما يدفعه إليه ، ولكنه يعلم حق العلم أن هناك دافعاً .

على أن أهم ما يفضى بنا إليه هذا العرض الموضوعى الموجز لحقيقة التنويم ، وهو أبرز ما انتهت إليه مزاولة المحللين النفسيين من علماء النفس له نصف قرن فى العالم كله ؛ هو انقسام الشخصية أو تحللها dissociation of personality فالجزء الذى على صلة بالمنوم معزول بطريقة خاصة عن بقية أجزاء المخ — كما تبين ذلك مما سبق أن قلنا فى وصف الكلب المنوم — وفى صراع الشخص النفسى حول تنفيذ الإيحاء الباطن بعد حالة التنويم ، مما يدل على أن الانقسام يبقى بعد حالة اليقظة ، وتحلل هذين الجزءين من العقل يكون بمعنى أنهما يفعلان كل على حدة ، بل وفى خصومة — وثمة حد بين شعور الواحد والآخر — وبرغم هذا اللاشعور المتبادل بينهما يؤثران فى بعضهما البعض .

وتفصيل الحديث عن اللاشعور والشعور هو موضوع حديث آخر نفرده لهما فيما بعد .

كمال دسوقى